النصيحة بين تفعيل المبادئ وتحقيق المقاصد.

د. حمزة لعيدية.
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران.

مقدمة:

الحمد لله الذي تعبدنا بصالح الأعمال، وأناطها بمصالح العباد، فجعل النصح أسلوبا ومنهجا مرضيا للوصول إلى الحق الذي يرضاه، والصلاة والسلام على الداعي إلى صراط الله المستقيم، الذي سلك طريق النصح في دعوته، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، والصلاة موصولة إلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

التناصح مهمة مشرفة وعبادة مقربة، أجرها عظيم وثوابها جزيل، فهي مهمة الأنبياء، سنوا لها ضوابط وشروطا، صدقوا الله في أقوالهم وأفعالهم لا يقصدون بذلك إلا وجه الله تعالى، فهم أحق في الإتباع لمنهجهم والاقتداء بهداهم، وأنجح الناس في أداء هذه الرسالة من ترى وراثات النبوة في خلقه وسلوكه، فشرع النصيحة وجعلها النبي صلى الله عليه وسلم الدين بمراتبه الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" الدّين النّصيحة" قلنا:" لمن يا رسول الله؟ " قال:" لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " (1).

قال الحافظ ابن حجر:" يحتمل أن يحمل على المبالغة أي معظم الدّين النّصيحة، كما قيل في حديث " الحج عرفة "(2)، ويحتمل أن يحمل على ظاهره لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين" (3).

ولله در البخاري في طريقة التصنيف، فذكر ابن حجر قائلا:" ختم البخاري كتاب الإيمان بباب النصيحة مشيرا إلى أنه عمل بمقتضاه في الإرشاد إلى العمل بالحديث الصحيح دون السقيم، ثم ختمه بخطبة جرير(4) المتضمنة لشرح حاله في تصنيفه ...ثم عقبه بكتاب العلم لما دل عليه حديث النصيحة أن معظمها يقع بالتعلم والتعليم.

جماع القول أن صحيح البخاري عبارة عن نصيحة يقدمها الإمام البخاري للأمة يرشدهم بضرورة لمحافظة على الحديث الصحيح وطرح الحديث السقيم، ثم يعقب بضرورة العلم والتعلم والتعليم، وهذا أمر جسيم إذ يمكن أن يتقدم أحدهم للنصح وليس له رصيدا كافيا، فماذا يصنع وقتئذ؟؟؟

تمهيد:

معنى النصيحة: لعل أبلغ ما قيل فيها ما ذكره ابن الأثير رحمه الله تعالى" النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة وهي إرادة الخير للمنصوح له ودرء الشر عنه في أمور دينه ودنياه وأخراه، لأنها حق مشترك بين المسلمين وواجب متبادل"، فبلغ من جماع هذه الكلمة وبلاغتها أنه لا يمكن التعبير عن هذا المعنى بكلمة واحدة إلا كلمة النصيحة.

ومن أدلة المشروعية:

قوله تعالى: { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }ا لأعراف.الآية62. الشاهد أن الله تعالى ذكر نوحا عليه السلام بصيغة الفعل، والفعل يدل على تكرار الحدوث أي أنها مهمة الأنبياء والرسل، وأنهم مطالبون بالحرص وعدم الملل والتهاون في النصح، ثم ذكر هودا بصيغة الوصف، فقال تعالى : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ }الأعراف.الآية62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عند التأمل في الخطاب القرآني نستشف منه طريقة النصح بين نوح وهود عليهما السلام، فأما نوح عليه السلام كان أكثر نصحا لقومه في التكرار ليلا نهارا، سرا وعلانية { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} نوح.الآيتان9/8، بينما هود عليه السلام كان يدعوهم حينا بعد حين، وفترة بعد فترة.

وتكون النصيحة حيلة العجزة، فحين عجزت نسوة مصر عن إرضاع موسى عليه السلام، التمست أخته من فرعون أن تأتيه بأمه لترضعه فاقتنع فرعون وقومه بالنصيحة، قال تعالى: { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} القصص.الآية12.

تشرع النصيحة قصد رفع الحرج والغبن عن المعذورين كما هو شأن القاعدين في قوله تعالى: { لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ عَلَى الَذِيْنَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }لتوبة.الآية91.

الشاهد أن النصيحة شرعت للضرورة عمن تخلَّفوا عن الجهاد بسبب الشيخوخة أو المرض.

ومن القواعد الكلية:

يشهد لذلك المنهج التشريعي العام القاضي بضرورة النصح للناس في أمور دنياهم ودينهم وأخراهم، يقول الإمام الذهبي معلقا على حديث " الدّين النّصيحة "فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله "الدّين النّصيحة" فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامة، كان ناقص الدين، وأنت لو دعيت: يا ناقص الدين لغضبت فقل لي :متى نصحت لهؤلاء؟! (6).

ومن السنة:

قوله صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبد الله "والنّصح لكل مسلم "(7)، فاشتراطه النصح لكل مسلم ظاهر فيه مصلحة العباد والبلاد في الحال والمآل، في الإفراد والاجتماع، ومن ذلك قوله صلى عليه وسلم:" حق المسلم على المسلم ست:... وإذا استنصحك فانصح له"(8)، فالأمر الوارد يقتضي الوجوب مضافا إليه كلمة "حق" في بداية الحديث، والتي ترشد كما نبه ابن حجر رحمه الله تعالى إلى أن الحق لابد أن يؤدى.

ومن ذلك أمره صلى الله عليه وسلم لمعاذ بأن ينصح ويرشد ويذكر بالكلمة الخالصة إلى كلمة الإخلاص وإلى أمور الدين بأسلوب النصيحة وكذلك السرايا والجيوش التي يرسلها أول ما يأمرهم بأن يناصحوا ويدعوا إلى الإسلام(9).

ومن الشواهد اللغوية:

أن النصيحة هي التخليص من الشوائب والغش كأن الناصح يخلص المنصوح من هذه الرواسب ومن ذلك قوله تعالى { توبة نّصوحا} التحريم.الآية8، أي خالصة من الذنوب والرياء...

ومن ذلك أيضا النصح هو الخياطة، والمنصحة هي الإبرة، والمقصود أن الإنسان يلم شعث أخيه من عيوب ونقائص ومخالفات كالإبرة تلم الثوب المهتري الذي يراد رتقه.

وبهذا شملت النصيحة جملة من الأمور الضرورية من إخلاص وصدق ونقاء وصراحة وصفاء وإصلاح...

– المبحث الأول: قواعد عامة في النصح.

للنصيحة قواعد عامة يدركها من ولج هذا الصرح، نذكر جملة منها للتأكيد لا للتأسيس:

1– رسالة رحمة:

لأن النصيحة تحتاج إلى رفق ولين كانت رسالة الإسلام رسالة رحمة، فمن حملها وآمن بها كان رحيما بالناس تأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم {وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين} الأنبياء.الآية107، ذلك لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وتودد إليها، وبغض من أساء إليها ونهرها، كما أنها تألف الاعوجاج والتمرد خاصة إذا طال عليها الأمد فيقسو القلب وتتشعب السبل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد قيل:إنّ الأشياء بضدها تتميز، فالناصح المخلص من وفقه الله تعالى إلى أقفال القلوب ففتحها برفقه، وتعامل معها برحمته، واستحضر مشاعر المودة في مخاطبته إياها، حينها تلين القلوب القاسية وتستقيم الجوارح العاصية، فما كان من القلب وصل إلى القلب، وما كان من اللسان لا يتجاوز الآذان.

2-فقه النصح:

مبنى النصيحة الحكمة، والحكمة هي مقتضى الحال، رضوان الله عليك يا علي بن أبي طالب حين قلت:"إن للقلوب إقبالا وإدبارا، فإذا أقبلت فأحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض" هذا هو فقه تلامذة المدرسة المحمدية، الذين أحسنوا النصح والإرشاد، فمن استطلع السيرة الشريفة رأى في هديه صلى الله عليه وسلم الرفق الذي يرفض العنف، والرحمة التي تنافي القسوة، واللين الذي يأبى الفظاظة، والستر الذي ينفر التعرية، يقول الفضيل بن عياض :" المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير" فكل معصية عيَّرت بها غيرك فهي إليك(10) فالناصح الناجح لا يظهر الشماتة بأخيه فيرحمه الله ويبتليك، فلتكن خلف لصفي الله تعالى والقائل فيه: { لقد جاءكم رسول مّن أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رّحيم } التوبة.الآية128 .

3-الكلمة كائن حي:

الكلمة الطيبة في المنظور الإسلامي كائن حي مؤثر، من أجل ذلك تعيَّن التنبيه إلى أهميتها والتنويه بها، انطلاقا منها تفتح القلوب للتلقي والآذان للسماع، والجوارح للعمل بها، ولن يتحقق هذا المقصود إلا إذا كان الناصح رفيقا رقيقا، فالنصح علاج مرّ فليصحبه شيء من حلو الكلام، وليكن الناصح من الذين يعلمون الحق ويرحمون الخلق، وهذا يحي بن معاذ يقول:" أحسن شيء كلام رقيق، يستخرج من بحر عميق على لسان رجل رفيق "(11).والسنة النبوية تفيض بالتوجيه والتنبيه إلى هذا الأسلوب التربوي،مثال قصة الأعرابي الذي بال في المسجد فنهره الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة والناصح الأمين دعاه فنصحه وبين له أن هذه المساجد لم تبن لمثل هذه النجاسات،وإنما للصلاة والذكر، حتى أنه حجر واسعًا فقال اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد.

4-لا مداهنة:

الناصح الحاذق هو الذي لا يصادم الفطر بقوة وخشونة اللفظ، وإنما يتخير طيب الكلام ولا يعني أن في ذلك مداهنة أو نفاقا أو تعطيلا للشرع، بل هي مراعاة النفسيات كما تراعى المصالح والمقاصد، والشاهد في ذلك ما يرويه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال:" أن ائذنوا له بئس أخو العشيرة" فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: " يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له في القول "، فقال عليه الصلاة والسلام:" أي عائشة إن من شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه "،كما أن أبا الدرداء كان يقول :" إنا لنكتشر —نتبسم- في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم ".

وهذا الفاروق يقولها ملء الفم :" لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبلها ".

من هذا المعين:" إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه " ومن:"إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"(12) واصل السلف الصالح النصح، فكانوا علماء في فهمهم، رحماء في نصحهم.

- المبحث الثاني: مقاصد النصيحة:

في تشريع النصيحة أسرار عظيمة وغايات سامقة، ارتأيت استخلاص جملة من هذه المقاصد العزيزة من حديث الباب "الدّين النّصيحة":

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-تحقيق الخيرية للعباد والبلاد:

أجمل الرسول صلى الله عليه وسلم الدين كله في النصيحة، وهذا الأمر بقدر عظمته بقدر خطورته، فهو يتأرجح بين كفتين، بين إقبال وإهمال، بين وجود وعدم، بين إحقاق لحق وإبطال لباطل، بين جلب مصلحة ودرء مفسدة، والمراد من هذا أن النصيحة إذا عمَّت وانتشرت فالدين بخير وحقَّ الحق وأبطل الباطل وتحققت المصلحة ودفعت المفسدة، أما إذا منعت النصيحة وصمت أهل الحق وامتنع أولو النهى عن النصح، معناه أن الدين في خطر والناس في هلاك، وبهذا يعدم مقصد ضروري من الكليات الخمس ألا وهو الدين، ويصبح الناس في هرج ومرج.

قال الحافظ أبو نعيم:"هذا حديث له شأن"، وذكر محمد بن أسلم الطوسي:" أنه أحد أرباع الدين" أي أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الدين، فعارضه الإمام النووي قائلا:" بل على هذا الحديث وحده مدار الدين ".

ومن هنا قال الإمام الغزالي:" إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -النصيحة- هو القطب الأعظم في الدين وهو مهمة التي ابتعث الله لها النبيين ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفتنة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد"(13).

1-تشوف الناصح مقام العبودية:

انطلاقا من حديث أبي أمامة الذي يرويه الإمام أحمد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" قال الله عزَّ وجلَّ:أحب ما تعبدني به عبدي النصح لي" التشوف إلى هذا المقام لهو من أسنى المقاصد الشرعية التي يسعى المكلف لتحصيلها، خاصة إذا وافق قصده قصد الشارع الحكيم في تفعيل هذه الفريضة، فهو قائم على مشروع الله تعالى الذي أرسل من أجله الأنبياء والرسل.

2-الوقوف عند حق الله وحق العبد:

يتجلى ذلك أولا في إسقاط الواجب عن القائم بالنصيحة، فهي واجبة على من استجمع أحكامها وحكمها من إخلاص وجودة وإتقان، وفيها تحقيق معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ أنه جزء من النصيحة كما أنها وسيلة من وسائله، أما عن حق العبد فهي بمقام القيام بحقوق الأخوة الإسلامية، فالنصيحة لا تنطلق إلا بشعور بالمسؤولية، فلما تشعر بالمسؤولية عن أفراد المجتمع تشعر بالمسؤولية عن حقوق الله تعالى التي ألزمك بها.

3-تحقيق السعادة في الحال والمآل:

النصيحة صمام الأمان من الوقوع في الشرور والمفاسد، بها يستقيم الفرد والمجتمع، وتسود المحبة والألفة والتعاون والتعاضد، والحرص على مصلحة الآخرين، ورجاء مجتمع لا تشوبه المحرمات والمنكرات والسلبيات والموبقات، فهي صورة لمجتمع متكامل.

4- من مقاصد النصح شكر المنعم :

المستعرض لتعاليم التناصح في التشريع ليدرك جملة من الثمرات، أعظمها أنه وارث محمدي، ورث الأنبياء والرسل في مهامهم من الاشتغال بالنصح والحرص على صلاح الفرد والمجتمع، وهذا من مقتضيات الإيمان الحق الذي يستحق أهله الخلافة في الأرض، والتمكين من أسبابها، بذلك تبوأ مقاما رفيعا، وهذه نعمة توجب الشكر، كما أنه مجازى عليها بالنعيم، موقّى بسببها عذاب الجحيم.

المبحث الثالث: مبادئ التناصح:

أولا: شعور المنصوح أنك تنصحه إلى ما فيه خير وصلاح له لا إلى نفع شخصي:

أول خطوات النجاح في تقديم النصيحة ثبات الناصح، لأن هذه المهمة صعبة إذا تصادمت مع قلوب قاسية ونفوس ماكرة، فشعور من تنصحهم بأنك لا تريد منهم جزاء ولا شكورا إنما تسعى لجلب نفع لهم وإرادة الخير، فإن وقفوا في طريقك وصدوك عن السبيل فليكن لسان حالك:" والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الله أو أهلك دونه " وكأن القرآن يخاطبك { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم } الزخرف.الآية43.

فإن التمس المنصوح في الناصح المبدأ وأدرك أنه قصدك وغايتك أيقن أن نصيحتك أخوية وتمسك بها وبك، ولنا في القرآن دروسا وعبرا فكل نبي ورسول يقول لقومه مؤكدا بعده عن المغانم الشخصية والمكاسب المادية {وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ أَجْرٍ إِنَ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ } الشعراء.الآية109، قالها نوح وقالها من بعده هود وصالح وشعيب ومن جاء بعدهم من رسل الله وأنبيائه.

مع بلقيس:

فطنت "بلقيس" بذكائها إلى اختبار سليمان عليه السلام ومعرفة مقصده وغاية ما يسعى إليه حين أرسل إليها برسالة الإسلام، أرادت أن تتأكد من صدقه ومبدئه، فأرسلت بهدية "والهدية تلين القلب وتعلن الود، فقد تفلح في دفع القتال، وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو أمر دنيا ووسائل الدنيا لا تجدي، وإن لم يقبلها فهو أمر عقيدة الذي لا يصرفه عنه مال ولا عرض من أعراض هذه الأرض"(14).

يقول ابن عباس رضي الله عنه:"قالت لقومها إن قلب الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه "(15) فلما رفض قالت إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين.

ثانيا: شعور المنصوح أنك حريص على مصلحته، تحب له الخير:

الناصح المخلص هو الذي يحرص كل الحرص على سلامة إخوته، والأخ الخائف عليهم يسهر على تحقيق الخير لغيره، يسعى لجلب السعادة ويخشى عليهم من عذاب يوم عظيم، وهذه صفات الأنبياء والرسل { إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم عَظِيْم}الشعراء.الآية135.

مع مؤمن يس:

الحرص الشديد والخوف العميق يصوّره القرآن في هذه القصة الرائعة {وَجَاءَ مِنَ أَقْصَا المدِيْنَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يا قَوْمِ ا تَّبِعُوا المرْسَلِينَ. تَّبِعُوا مِن لاَّ يَسْئَلُكُمُ أَجْراً وَ هُمْ مُّهْتَدُونَ.وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.ءآتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُّرِدْنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ.إِنِّي أَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ.قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المكْرَمِينَ } يس.الآيات27/20.

يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنه:" نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته "، وقال أبو السعود: " إنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر، والتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جريا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء"(16).

مع مؤمن فرعون:

الرجل الذي سعى إلى قومه يرشدهم إلى سبل السلام، يتسلل إلى القلوب بالنصيحة التي تسيل رقة ممزوجة بالتخويف والإقناع { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً اَنْ يَّقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جَاءَكُم بِالبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَ إِنْ يَّكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } غافر.الآية28، استحضر مآل كلماته والأسلوب الذي نصحهم به ناظرا إلى أثره وآثاره، إنه نوع من أنواع علم البيان، فخاطبهم بالنصح والملاطفة وكررها مرات ببصيرة وحكمة وحرص شديد على تخليصهم مما هم عليه من ضلال، مرغبا حينا ومرهبا آخر، مركزا على تأليف القلوب.

ثالثا: عدم التعنيف:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملاطفة من يرجى إسلامه لتأليف قلبه أمر مرغوب فيه، فما بالنا بمن يرجى توبته وهو مسلم، مسلِم أمره بين يديك يتوسم فيك النصح، فالعنف لا يأتي بخير ولا ينتج منه إلا الفرار والصدَّ وهذا أبسط نتاجه، قال تعالى { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } طه.الآية44، فالإرشاد يحتاج إلى الحكمة والتأني في الأمور، والمعرفة بطبيعة الإنسان وعناده وتمرده، وأنه أكثر شيء جدلا فلا بد من الترفق في الولوج إلى عقله والتسلل إلى قلبه حتى نلين من شدته، ونكفكف من جموده، ونطامن من كبريائه(17)، قال حماد بن مسلمة :" أن صلة بن أشيم مر عليه رجل قد أسبل إزاره-إشارة إلى الكبر- فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة، فقال: دعوني أنا أكفيكم، فقال أشيم للرجل: يا ابن أخي إني لي إليك حاجة، فقال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك.فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره، فقال لأصحابه: لو قرعتموه لقال لا ولا كرامة وشتمكم"(18).

رابعا: تقرب الناصح من المنصوح والطلاقة في وجهه:

لغة التصرفات والحركات عامل مهم بين الناصح والمنصوح، فمتى كانت حيوية ونشاط وسلوك طيب أدخل السرور على المنصوح واجتذبه إلى الناصح وهيأه للسماع بنفس راضية، كأن يهش في وجهه حين يلقاه أو يربت على ركبتيه أو كتفه أو يدنيه منه وهو يتحدث إليه أو يعطيه وجهه حين الحديث معه والإنصات إليه، أو يناديه بأحب الأسماء والكنى، ليشعر بقرب الناصح منه وقربه منه، ولنا في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم عبرة من حديث " الإسلام والإحسان والإيمان " فقال الإمام النووي معقبا على ذلك: " ينبغي للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ليتمكن من سؤاله غير هائب ولا منقبض ".

ما أروع أبا حفص عمر بن الخطاب، الشديد وقت الشدَّة واللين وقت اللين، أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال:" كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب.قال :فدعا عمر كاتبه فقال:أكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك.فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير.ثم قال لأصحابه: أدعو الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب إلى الله، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال:هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادعوا له أن يتوب ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه"(19).

خامسا: تواضع الناصح وإنزال المنصوح منزلته:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل الناس منازلهم، يوقر كبيرهم ويعطف على صغيرهم، ويكرم من كان له سبق في الإسلام، يقول ابن كثير: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله- من غير أهل بدر- قم يا فلان، قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل مع هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه !!! فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي المجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُم وَ إِذَا قِيلَ اَنشُزُواْ فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات ﷺ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } المجادلة.الآية11.

بهذا الأسلوب القرآني والنبوي تملك الآخر وتكسب ثقته، وتأسر قلبه، وتحركه نحو الفضيلة فيكون كله آذان صاغية، فالنصيحة هي إحسان إلى المنصوح بصورة الرحمة له، والناصح المخلص لا يحتقر أخاه عند نصحه لقوله صلى الله عليه وسلم:" بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم "(20).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سادسا: الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان:

جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والنصيحة طعمها مر وقد تنقلب إلى فضيحة إذا لم يختار الناصح القنوات المناسبة لإيصالها فيخلط السم بالدسم، ولأن النصيحة يراد بها وجه الله تعالى، وهي الغاية فلا بد وأن يكون للوسيلة من شرف الغاية ما ينأى بها عن التشهير والتنكيل بالعصاة مدفوعين بشهوات الانتقام والاستعلاء والرغبة في كشف المخبوء (21)، فكسب القلوب أهم من كسب المواقف، وعليه أن يتحرى الأسلوب الأقوم، والتعبير الأكرم في النصح لأن ذلك أوقع في النفس وأحوط من الوساوس، قال علي رضي الله عنه:" النصح بين الملأ تقريع".

فالناصح يضع نفسه مكان المنصوح قبل أن ينصح، وليكن شعاره قوله صلى الله عليه وسلم" لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه " (22)، ومن خلال هذا الموقف التربوي يتعلم الناصح تقنيات النصح النبوي وذلك في حجة الوداع وما حدث من الفضل والمرأة الخثعمية والكيفية التي عالج بها الرسول صلى الله عليه وسلم الموقف قائلا:" هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له"(23).

نتأمل فقه النصح من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما أخرجه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:" كنت مع عمر في حج أو عمرة فإذا نحن براكب، فقال عمر: أرى هذا يطلبنا، فجاء الرجل فبكى، قال: ما شأنك؟ إن كنت غارما أعناك، وإن كنت خائفا آمناك إلا أن تكون قتلت نفسا فتقتل بها، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم، قال: إني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وإن أبا موسى جلدني وسود وجهي وطاف بي في الناس، وقال: لا تجالسوه ولا تواكلوه، فحدثت نفسي بأحد ثلاث: إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام، فإنهم لا يعرفونني، وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب. فبكى عمر وقال: ما يسرني أنك فعلت وإن لعمر كذا وكذا، وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية، وإنها ليست كالزنا وكتب إلى أبي موسى : سلام عليك أما بعد، فإن فلانا ابن فلان أخبرني بكذا وكذا، وأيم الله إني إن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد فأمر الناس أن يجالسوه ويواكلوه، فإن تاب فاقبلوا شهادته، وحمله وأعطاه مائة درهم"(24)، هذا هو الفقه العمري في التوجيه والنصح لشارب خمر ولوالي من ولاة المسلمين بل صحابي جليل يهدده لأنه أساء الوعظ وأعان الشيطان على المسلم حتى راودته أفكار قاتلة من قتل أو اللجوء إلى العدو نتيجة التشهير والغلظة.

تأسيسا على الاجتهاد العمري، قعَّد الإمام البخاري قاعدة جوهرية في تقديم النصيحة، يقول فيها: " الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان، وقد يتعين إذا جرَّ الإعلان إلى مفسدة"(25) معنى ذلك أنه يتعيَّن الإسرار لا من باب الأولى بل من باب الوجوب إذا جرَّ الإعلان إلى مفسدة، ومعلوم أن صفة الحكم تتغير فترتقي من الأخف إلى الأثقل إذا عارضت مفسدة معينة مصلحة مؤكدة، لهذا تقرر أن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف.

قال بعض السلف لإخوانه إنك لا تنصحني حتى تقول في وجهي ما أكره، لأن هذا إحسان أن تخبر أخاك بالعيب الذي عنده، وقد قيل لبعض السلف: أتحب أن يخبرك أحد بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا، ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله في أبياته المشهورة وهو يتكلم بلسان عامة الناس – وهو من هو يتقبل النصح حتى ممن يشهر به- :

تعمدني بنصحك في انفرادي *** وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع *** من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت قولي *** فلا تغضب إذا لم تعط طاعة

سابعا: تجنب الخلافات الفقهية والابتعاد عن المراء:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من المقررات الشرعية أن أحكام الإسلام إما أصلية وإما فرعية، أحكام متفق عليها أو أحكام مختلف فيها، والخلاف الفقهي لا ينكره العقلاء، فكل فقيه أجهد واجتهد ليصل إلى الحكم الصحيح عن طريق الدليل، وكلهم من رسول الله ملتمس، يقول الإمام النووي" إن المختلف فيه لا إنكار فيه، لكن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق".

هذه قضية غاية في الأهمية خاصة في سلك التعليم، فحاجة الأسرة التربوية والتعليميةللنصح والتناصح بين أفرادها طلبة وأساتيذ من أهم الأسس والأساليب التي تعينهم في حياتهم العملية لبناء شخصياتهم وتعديل سلوكهم، كم من طالب تشوش فكره في مسائل فقهية وتعصب لمذهب دون آخر بل جرَّح وأذنب في حق غيره، لكن بالتروية والتوضيح والتوجيه السليم عاد إلى الصواب واقتنع بأن هذه سنة الله في خلقه، وطرح ذلك الشك واعتمد قاعدة ثمينة وهي:" نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه " وبهذا تحققت الأهداف المنشودة في العملية التعليمية والتربوية، وكان سند هذه المحاولات الإصلاحية المربي الكريم والموجه الحكيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما هذا إلا محاولة لإبراز الجانب القولي والفعلي في إتباع أسلوب النصح والتذكير في مجال التربية والتعليم.

الخاتمة:

وهي تأكيد واستدراك للخلل والجوابر لترقيع ما نقص، من أجل ذلك ثمة توجيهات ينبغي أن يهتم بها الناصح الأمين، فتكون له متكئا وعونا في مهمته النبيلة، وهذه بعضها تمثيلا لا حصرا:

- على الناصح أن يتحرى قصده حين النصح فيقصد ما قصده الشارع الحكيم.
- النصيحة أصل عظيم ومبدأ تربوي أصيل مستنبط من وحي الكتاب والسنة.
- النصيحة مسلك من المسالك التي سلكها القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم في توجيه الناس، وإرشادهم نحو سبل السلام، ونبذ ما هم عليه من كفر وضلال.
- مبنى النصيحة المصادر الشرعية، قواعدها شروط محكمة فنية كالعلم، والحكمة، والموعظة الحسنة، والرفق واللين، ومعرفة ظروف الزمان والمكان وحال المنصوح، والإسرار بها دون العلانية، وعدم الشد على المنصوح والضغط عليه.
- النصيحة بالأسلوب المناسب والموافق للمقام هداية وغاية أولى للناصح يترتب عليها الجزاء الكبير من الشارع الحكيم، وأمل الناصح هو اهتداء الناس.
- تنوع أساليب القرآن الكريم والسنة المطهرة في النصح، والدعوة إلى الدين القويم تنوعا يدل على عالمية رسالة الإسلام وصلاحيتها لكل زمان ومكان.
- على الناصح أن يراجع وسائل النصح على ضوء مستجدات العصر طبقا لظروف المكان والزمان، فالجمود على وسائل بعينها وعدم القدرة على تجاوزها مضيعة للعمر والأجر والعمل.
- تراجع نسبة قبول النصيحة إنما سببه عدم تطبيق الأساليب الصحيحة وعدم اختيار القنوات السليمة، وهذا ما يلاحظ في سلك التعليم، إضافة إلى غياب منظومة تربوية رشيدة تسهر على ترشيد المتعلم.
- ضرورة الاهتمام بالنصيحة لما لها في الإسلام من آثار تربوية كثيرة، متعلقة ببناء الشخصية في جميع جوانب الحياة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- برمجة فصول من قصص القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح في جميع الأطوار الدراسية لتكون عونا للمربي في التوجيه والإرشاد، وسراجا للمتعلم وموعظة وتذكرة.
- الحذر ثم الحذر من الملل والتخلي عن هذه الفريضة مهما بلغ الأمر، فلا تدري متى تفتح القلوب.
- تذكر دائما مفعول الكلمة الطيبة في قلوب أشد قسوة من الحجارة.
- اليقين في الله بأن نصيحتك مرجوة وأن السداد من المنان الكريم.
- تصور أنك في الجهة الأخرى، فتذكر وقل الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، واسأل الله العافية إذا رأيت أهل البلاء.

الهوامش:

1-صحيح مسلم.كتاب الإيمان، باب أن الدين النصيحة ج 1، ص 74، حديث رقم55.

2-صحيح ابن خزيمة ، باب الدليل على أن الحج عرفة ، ج 4 ، ص 257 ، حديث رقم 282.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3-فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج 1.ص170.

4-خطبة جرير يرويها أبو عوانة عن زياد بن علاقة قال:"سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتّقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسَّكينة، حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن.ثم قال:استعفوا لأميركم، فإنه كان يحبّ العفو ثم قال:أما بعد فإني أتيت النبي صلى الله عليه وسلم قلت:أبايعك على الإسلام:فشرط عليَّ " والنصح لكلّ مسلم"فبايعته على هذا، وربّ هذا المسجد إني لناصح لكم.ثم استغفر ونزل. /فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج 1.ص171.

5-قدمت المقاصد على المبادئ لما للمقاصد من مكانة ومكين، وتحصيلها عزيز ومنشود كل ناصح وفي معرفتها سعي حثيث لكل ناصح، فيعمل مجتهدا في توظيف هذه المبادئ والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ.

6-سير أعلام النبلاء.شمس الدين الذهبي. ج 11 . ص500.

7-فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج 1.ص171.

8-صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا.حسن.

9-النصيحة-مفهومها وتطبيقاتها التربوية في الإسلام.سعد بن عطية بن محمد القرني.رسالة ماجستير. جامعة أم القرى.مكة المكرمة.المملكة العربية السعودية 1421/1422هـ.ص4.

10-مدارج السالكين.ابن قيم الجوزية.ج1.ص176.

11-المنطلق.أحمد الراشد.ص26.

12-صحيح مسلم.ج1.ص93.رقم147.

13-إحياء علوم الدين.الغزالي.ج2.ص306.

14-في ظلال القرآن.سيد قطب.ج5.ص264.

15- صفوة التفاسير.علي الصابوني.ج2.ص408.

16- المرجع نفسه. ج3.ص11.

17-الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.يوسف القرضاوي.ص47.

18-الدعوة قواعد وأصول. جمعة أمين عبد العزيز.ص141.

19-حياة الصحابة.محمد يوسف الكاندهلوي.ج3.ص338.

20-رواه مسلم.

21-الدعوة قواعد وأصول.جمعة أمين عبد العزيز.ص154.22

22-مسند الإمام أحمد.

23-صحيح البخاري.ج4.ص67.رقم185.

24-كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال.البرهان فوري.ج3.ص105.

25-فتح الباري شرح صحيح البخاري.ج1.ص102.رقم27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com